الفصل الأول

الافتتاح بالنداء
سورة النساء

استوقف مطلع سورة النساء علماءنا ، فحررت أياديهم بيانا كاشفا عن خطورة هذا الدرس في القرآن الكريم ، وكثر كلامهم في الحديث عن مطلع هذه السورة كثرة غير معهودة في سائر سور الذكر الحكيم عدا سورة الفاتحة ، ولعل ذلك يرجع إلى وضوح العلاقة بين فاتحة سورة النساء ومقصودها .

وبعد استقراء كلام الأئمة تبين لنا أن مطلع سورة النساء هو قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء:١).

وقد تأول محمد بن جرير معنى قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم . . . ﴾ بما يناسب ما اشتملت عليه السورة فقال : «احذروا أيها الناس ربكم في أن تخالفوه فيما أمركم ، وفيما نهاكم ، فيحل بكم من

عقوبته ما لا قبل لكم به ، ثم وصف ـ تعالى ذكره ـ نفسه بأنه المتوحد بخلق جميع الأنام من شخص واحد ، وعرف عباده كيف كان مبتدأ إنشائه ذلك من النفس الواحدة ، ونبههم بذلك على أن جميعهم بنو رجل واحد وأم واحدة ، وأن بعضهم من بعض ، وأن حق بعضهم على بعض واجب وجوب حق الأخ على أخيه لاجتماعهم في النسب إلى أب واحد وأم واحدة ، وإن الذي يلزمهم من رعاية بعضهم حق بعض ، وإن بعد التلاقي في النسب إلى الأب الجامع بينهم ، مثل الذي يلزمهم من ذلك في النسب الأدنى »[1] .

وكانت كلمة جار الله أنفذ وأوضح في موضوع دراستنا . فقد استشكل ـ رحمه الله ـ ورود قوله : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾ عقيب الأمر بالتقوى فقال : « فإن قلت : الذي يقتضيه سداد نظم الكلام وجزالته ، أن يجاء عقيب الأمر بالتقوى بما يوجبها أو يدعو إليها فكيف كان خلقه إياهم من نفس واحدة على التفصيل الذي ذكره موجبا للتقوى وداعيا إليها؟ قلت : لأن ذلك مما يدل على القدرة العظيمة ، ومن قدر على نحوه كان قادرا على كل شيء ، ومن المقدورات عقاب العصاة ، فالنظر فيه يؤدي إلى أن يتقي القادر عليه ، ويخشى عقابه ، ولأنه يدل على النعمة السابغة عليهم ... أو أراد بالتقوى تقوى خاصة ، وهي أن يتقوه فيما يتصل بحفظ الحقوق بينهم ، فلا يقطعوا ما يجب عليهم وصله ، فقيل : اتقوا ربكم الذي وصل بينكم حيث جعلكم صنوانا مفرعة من أرومة واحدة ، فيما يجب على بعضكم لبعض فحافظوا عليه ولا تغفلوا عنه ، وهذا المعنى مطابق لمعاني السورة »[2].

---

(١) جامع البيان ١٤٩/٤ .

(٢) الكشاف ٤٩٢/١، ٤٩٣ .

وقد كانت كلمته الأخيرة هذه من أصرح المقالات في بيان المناسبة بين مطلع السورة ومقصودها . وقد حرر البيضاوي عبارة الزمخشري في قوله : « وترتيب الأمر بالتقوى على هذه القصة لما فيها من الدلالة على القدرة القاهرة ، التي من حقها أن تخشى ، والنعمة الباهرة التي توجب طاعة موليها ، أو لأن المراد به تمهيد الأمر بالتقوى فيما يتصل بحقوق أهل منزله ، وبني جنسه على ما دلت عليه الآيات التي بعدها »[1] .

وهذه العبارة تلخيص دقيق لعبارة جار الله العلامة ، وقد استظهره السيد محمود شكرى الألوسي موازنا إياه بالمعنى الأول قال ـ رحمه الله ـ « وأما الاتقاء في الإخلال بما يجب حفظه من الحقوق فيما بين العباد ، وهذا المعنى مطابق لما في السورة من رعاية حال الأيتام ، وصلة الأرحام ، والعدل في النكاح والإرث ونحو ذلك بالخصوص ، بخلاف الأول ، فإنه إنما يطابقها من حيث العموم ، وفي التعرض لعنوان الربوبية ، مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين ما لا يخفى من تأييد الأمر وتأكيد إيجاب الامتثال »[2] .

وقد اتخذ الحديث عن مطلع هذه السورة ـ بعد تأويل الطبري وتصريح الزمخشري ، وتلخيص البيضاوي ـ طورا آخر على يد ابن الزبير ـ رحمه الله ـ فيما قاله ـ بعد بيان مناسبة سورة النساء لما قبلها ـ « وتضمنت السورة ابتداء الأمر وانتهاءه ، فأعلمنا بكيفية التناكح ، وصورة الاعتصام ، واحترام بعضنا لبعض ، وكيفية تناول الإصلاح فيما بين الزوجين عند التشاجر والشقاق ، وبين لنا ما ينكح وما لا ينكح وما أبيح من العدد وحكم من لم

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ٢٠٢/١ .
(٢) روح المعاني ١٨٠/٢ .

يجد الطول ، وما يتعلق بهذا إلى المواريث ، وفصل ذلك كله إلا الطلاق ، لأن أحكامه قد تقدمت ، ولأن بناء هذه السورة على التواصل والائتلاف ، ورعى حقوق ذوى الأرحام ، وحفظ ذلك كله إلى حالة الموت المكتوب علينا وناسب هذا المقصود ـ من التواصل والألفة ـ ما افتتحت به السورة من قوله : ﴿ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾ فافتتحت بالالتئام والوصلة ، ولهذا خصت من حكم تشاجر الزوجين بالإعلام بصورة الإصلاح والمعدلة[1] ، إبقاء لذلك التواصل ، فلم يكن الطلاق ليناسب هذا فلم يقع هنا له ذكر إلا إيماء في قوله : ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ ولكثرة ما يعرض من رعي حظوظ النفوس عند الزوجية ومع القرابة ، ويدق ذلك ويغمض ، لذلك تكرر كثيرا في هذه السورة الأمر بالاتقاء ، وبه افتتحت ﴿ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾ ... ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ﴾ . . . ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ ثم حذروا من حال من صمم على الكفر ، وحال اليهود والنصارى والمنافقين وذوي التقلب في الأديان بعدا عن اليقين ، وكل ذلك تأكيد لما أمروا به من الاتقاء والتحمت الآي إلى الختم بالكلالة في المواريث المتقدمة[2] .

وكلام ابن الزبير ـ رحمه الله ـ يقتضينا دراسة تراكيب المعاني التي تضمنتها هذه السورة ، ومناسبتها لتراكيب ما افتتحت به السورة ، وهو الأمر الذي يظهر لنا خصائص البيان في هذه السورة ، وفي سائر سور القرآن الكريم ، والذي يتنبه إلى مقصود السورة يتبين كثيرا من أسرار

---

(١) هذا اللفظ في البرهان لابن الزبير ويبدو أن الأصح ما جاء في نظم الدرر نقلا عن ابن الزبير (والعدالة) انظر : نظم الدرر ٥/٢٧٤ .

(٢) البرهان في تناسب سور القرآن ص٨٧ .

تراكيبها ، وينكشف له سر مشتبه نظمها ، وترابط موضوعها الأصلي الذي هو هنا (التواصل والائتلاف) والذي يجعله مطلعها ثم تفصله السورة بعد ، وقد انتفع البقاعي بمقالة ابن الزبير ، وكشف عن علل بعض التراكيب بمطلع السورة ومقصودها ، اللذين يطويان أسرار النظم في كل من سور القرآن الكريم وقد بث مقالة ابن الزبير في نظم الدرر ووزعها على مواضعها مما اقتضانا أيضا ـ تأثرا للسلف ومحاولة لاستكشاف مدب أقدامهم في توليد أفكار أسلافهم ـ أن نترك الحديث عن مقالات البقاعي إلى محاولة إبراز نماذج لبيان علاقة بعض التركيب بمطلع السورة . . . وذلك بعد إجمال مقالات العلماء في مطلع السورة .

وقد نبه بدر الدين الزركشي ـ نقلا عن بعض الأئمة ـ إلى بيان العلاقة فقال : « وأما سورة النساء فتتضمن جميع أحكام الأسباب التي بين الناس ، وهي نوعان : مخلوقة لله ، ومقدورة لهم ، كالنسب والصهر ، ولهذا افتتحها الله بقوله : ﴿ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم . . . ﴾ »[1] .

وقد علق جلال الدين السيوطي على هذه العبارة بعد نقلها فقال :

« فانظر إلى هذه المناسبة العجيبة والافتتاح ، وبراعة الاستهلال حيث تضمنت الآية المفتتح بها ما في أكثر السورة من أحكام . . . »[2] هي إذن علاقة الإجمال والتفصيل شأن السورتين السابقتين على هذه السورة الكريمة .

والبقاعي يرسي مقصود السورة أولا ، ثم يبني على ما أرساه استبصاره لكثير من تراكيبها ، وبيان مناسبة موضوعاتها يقول ـ رحمه الله ـ في سورة

(١) البرهان في علوم القرآن ٢٦١/١ .
(٢) الإتقان ١٤٣/٢، وتناسق الدرر ، ص٧٦، ٧٧ .

النساء : «ومقصودها : الاجتماع على التوحيد الذي هدت إليه سورة آل عمران ، والكتاب الذي هدت إليه سورة البقرة . . . ولما كان مقصودها الاجتماع ، وكان السبب الأعظم في الاجتماع والتواصل عادة الأرحام . . . التي مدارها النساء سميت سورة النساء لذلك ، ولأن بالاتقاء فيهن تتحقق العظة والعدل الذي لبابه التوحيد . . .»[1] .

ثم بين في نظم الدرر أن هذا المقصود الذي بينه جاء في صدر السورة فقال : «ولما كان المقصود من هذه السورة المواصلة وصف نفسه المقدسة بما يشير إلى ذلك فقال : ﴿ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ﴾»[2] . . . وكان مطبقا لما قاله ـ رحمه الله ـ في بعض المواطن بما سنذكره في موضعه إن شاء الله .

وتبين الإمام محمد عبده العلاقة مهتديا ببصائر السابقين فقال : «افتتح ـ سبحانه ـ السورة بتذكير الناس المخاطبين بأنهم من نفس واحدة ، فكان هذا تمهيدا وبراعة مطلع لما في السورة من أحكام القرابة بالنسب والمصاهرة ، وما يتعلق بذلك من أحكام الأنكحة والمواريث ، فبين القرابة العامة بالإجمال ، ثم ذكر الأرحام ، وشرع بعد ذلك في تفصيل الأحكام المتعلقة بها»[3] . . . وكلامه ـ يرحمه الله ـ ثمرة تدبره لبناء المعنى في صدر هذه السورة كما سنفصله عند حديثنا عن المطلع .

وتستوقف الصلة في قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ ﴾ العلامة ابن عاشور فيقول : «وفي هذه الصلة براعة استهلال مناسبة لما اشتملت عليه

---

(١) مصاعد النظر ٢/٨٨، ٨٩ .

(٢) نظم الدرر ٥/١٧٥ .

(٣) تفسير القرآن الحكيم المشتهر بتفسير المنار ٢/٤٦٤ .

السورة من الأغراض الأصلية ، فكانت بمنزلة الديباجة»[1] وكلامه ينبهنا إلى أن المناسبة بين مطلع السورة وما فيها إنما تكون بين الأغراض الأصلية والمطلع والمعاني الأخرى تأتي مقتضيات للأغراض الأصلية .

وللشيخ عبد المتعال الصعيدي كلمة قريبة في هذا المطلع يقول : «وقد ابتدئت هذه السورة بآية كبراعة مطلع لما جاء بعدها من أحكام»[2] .

وذكر الدكتور أحمد بدوي أن سورة النساء «قد تحدثت عن أحكامهن في الزواج والميراث ، فكان من أجمل براعة الاستهلال قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾ ألا ترى في خلق المرأة من زوجها ما يوحي بالرفق ، والحنان الذي يجب أن تعامل به المرأة ، فلا يبخس حقها زوجة أو أما أو بنتا ، وفي الحديث عن تقوى الأرحام هنا إشارة إلى أن السورة ستعالج بعض أمورهم أيضا ورثة يتامى»[3] .

والملمح اللطيف الذي يعزى إلى الدكتور أحمد بدوي ما نبه إليه من فائدة هذه الجملة ﴿ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا ﴾ وبوسعنا أن نربط بهذه الجملة كثيرا من التراكيب التي تعد من خصائص هذه السورة ، وكما رأينا قد اتسع القول في مطلع هذه السورة بل جعل الأستاذ سيد قطب مطلع هذه السورة أصلا كبيرا تقام عليه كل تكاليف التكامل الواردة في السورة ، وكان ذاكرا ما أسسه من هذا القول خلال معالجته للسورة[4] .

واهتداء ببصائر الأئمة في تدبر تراكيب هذا المطلع نحاول بيان علاقته

---

(١) التحرير والتنوير ، النساء ص٢١٤ .

(٢) النظم الفني في القرآن ص٧٦ .

(٣) من بلاغة القرآن ص٢٤١ .

(٤) ينظر : في ظلال القرآن على سبيل المثال ٥٧٣/١، ٦٥٧/٢، ٧٦٥/٢ .

ببعض التراكيب . أول ما يلقانا هنا التعبير بالناس بدل ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ والله قد خلق الناس جميعا مؤمنهم وكافرهم من نفس واحدة ، فلعله عبر بالناس ليناسب الصلة بعده ولينبه إلى ورود تكاليف في السورة تشمل علاقة المسلمين بغيرهم من مثل مطالبة المؤمنين بالإيمان بالكتب المنزلة وغير ذلك ، والإيذان بالحرب وبيان كيفية الصلاة عند ملاقاة الكافرين ، وما في ذلك من جمع لقلوب المؤمنين ، وإظهار بأدائها للثقة بالله والاطمئنان إليه ، مما يعكس أثرا مخيفا في قلوب العدو ، ولعل هذا دأب القرآن إذا ما أراد التنبيه لأمر يشمل المسلمين وغير المسلمين يستأنس لذلك بقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ . . .﴾ (الحجرات:١٣).. ولو قال هنا : يأيها الذين آمنوا . . لفسد النظم ولنافر ما بعده . . ولذكر الربوبية بعد الأمر بالتقوى معنى لطيف فهو تنبيه إلى إيراد التكاليف في هذه السورة بالترغيب أولا ، ثم بالترهيب بعد ذلك تناسبا مع ما في المطلع من قوله : ﴿ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾ ثم قوله : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ قال الفخر الرازي في توجيه هذا التكرير وجوه : «الأول : تأكيد الأمر والحث عليه ، الثاني : أنه أمر بالتقوى في الأول ، لمكان الإنعام بالخلق وغيره ، وفي الثاني أمر بالتقوى ، لمكان وقوع التساؤل به فيما يلتمس البعض من البعض ، الثالث : الرب لفظ يدل على الربوبية والإحسان ، والإله لفظ يدل على القهر والهيبة ، فأمرهم بالتقوى بناء على الترغيب ، ثم أعاد الأمر به بناء على الترهيب»[1] واستحسان الوجه الثالث ينبهنا إلى لطائف في بناء المعاني في هذه السورة ، ومن أمثلة ذلك في السورة قوله تعالى : ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ

(١) مفاتيح الغيب ٤/٦٥٤ .

﴿ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا ﴾ (النساء:٩). . ثم جاء عقيبه قوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ﴾ (النساء:١٠) مع التدبر البياني لهذين التركيبين ، فالتركيب الأول مع ما فيه من الترهيب فيه جانب كبير من الترغيب ، أما الثاني فكله ترهيب . وأوضح من هذا المثال قوله تعالى : ﴿ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ (النساء:١٣). ومجيء الترهيب عقيبه بقوله : ﴿ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴾ (النساء:١٤) .

وقد ذكر الرازي أن قوله (تلك) « إشارة إلى كل ما ذكره من أول السورة إلى هاهنا ، من بيان أموال الأيتام ، وأحكام الأنكحة وأحوال المواريث»[1] ، وفي قوله : ﴿ وَمَن يُطِعِ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَمَن يَعۡصِ ﴾ قال بعضهم : هو « مختص بمن أطاع أو عصى في هذه التكاليف المذكورة في هذه السورة»[2] وما ذكره البعض مرجوح عند الرازي ، وهو راجح ـ فيما أرى ـ من حيث بناء المعنى ، فهذا البناء من خصائص هذه السورة مع مراعاة أن من خصائص هذه السورة كثرة الأمر بطاعة الله والرسول بأنماط تركيبية تعد من خصائص هذه السورة ، وتتناسب مع ما في مطلعها من تكرار الأمر بالتقوى منها التركيب الذي مضى ثم قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ . . . ﴾ (النساء:٥٩) مع تدبر ما في تكرار الأمر بالطاعة المتناسب مع تكرار الأمر بالتقوى ، ثم

---

(١) مفاتيح الغيب ٧٦/٥ .

(٢) مفاتيح الغيب ٧٧/٥ .

قوله : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ . . . ﴾ ، ثم قوله : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم ﴾ (النساء:٦٩) ثم قوله : ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴾ (النساء:٨٠) . . وترجيح هذا الاستنباط ، يقتضينا النظر في آيات الترغيب والترهيب الواقعة عقيب التكاليف في القرآن الكريم ، وتراكيبها ، والتنظير بين جريان تراكيبها في سائر سور القرآن ، وتراكيبها في هذه السورة .

وتدبر الصلة التي وقعت وصفا للربوبية يقتضينا النظر في بناء المعاني في هذه السورة فيما يختص بالتواصل ، فالناس جميعا من أصل واحد ثم من أصلين ثم تفرعت الخليقة بعد ذلك ، فجاء النهي عن الزواج بالمحرمات في هذا النسق الذي جاء في المطلع وكان هذا البناء من خصائص السورة . قال تعالى : ﴿ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ . . .﴾ (النساء:٢٣) إلى آخر ما ذكره الله من المحرمات ، فالزواج «وسيلة مشروعة لإمتاع النفس وإنجاب الذرية وتكوين الأسرة ، فإذا أبيح تزوج الإنسان من أقرب الناس إليه كالأم ، والبنت ، اصطدمت حقوق هؤلاء الأقارب بحقوق الزوجية ، فالأم مثلا لها حق الطاعة والاحترام ، فلو اتخذها الإنسان زوجة ، لكان له عليها حق القوامة ، وحق الطاعة والخضوع»[1] . المهم أنه يجب التنبه إلى درجات القرابة في التحريم في نظم الآية ، مع تدبر بناء الخلق في مطلع السورة ، مع تدبر البناء أيضا في قوله تعالى : ﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ ﴾ (النساء:٢٦).

(١) أهداف كل سورة ومقاصدها ، ص٥٣٠ .

وهو أمر يتصل بالتواصل يبدأ بالأسرة ثم القبيلة ثم بقية الخلق من الضعاف ثم الجار بدرجاته . . إلخ . وهذا البناء من خصائص هذه السورة . وقد جاء بناء مقارب له في سورة البقرة قى قوله تعالى : ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا** . . .﴾ (البقرة:٨٣). مع مراعاة المفارقات التركيبية في الآيتين ، وتناسب التركيب الأول مع ما في المطلع من طول الصلة وكثرة المعطوفات ، وللبقاعي ـ رحمه الله ـ ملمح لطيف في هذا التركيب فقد لحظ سقوط الجار في قوله : ﴿ **وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ** ﴾ في البقرة ووجوده في سورة النساء ﴿ **وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ** ﴾ فقال ـ رحمه الله ـ « ولما كان مبنى السورة على الصلة لا سيما لذي الرحم ، قال ـ مفصلا لما ذكر في أول السورة تأكيدا له ـ ﴿ **وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ** ﴾ ، لتأكد حقهم بمزيد قربهم ، ولاقتضاء هذه السورة مزيد الحث على التعاطف أعاد الجار ثم أتبع ذلك من تجب مراعاته لله . . . »[1] .

ومن بصائر البقاعي ما لمحه من مناسبة التركيب للمطلع ما قاله عند قوله تعالى : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ** ...﴾ (النساء:٢٨). « ولما كان المال عديل الروح ، ونهى عن إتلافه بالباطل ، نهى عن إتلاف النفس ، لكون أكثر إتلافهم لها بالغارات لنهب الأموال ، وما كان بسببها وتسببها . . فكان النهي عن ذلك أنسب شيء لما بنيت عليه السورة من التعاطف والتواصل فقال : ﴿ **وَلَا تَقْتُلُوٓا۟** ﴾ »[2].

ومن لطائف المطلع هذه الجملة ﴿ **وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا** ﴾ وما استنبطه

---

(١) نظم الدرر ٥/٢٧٦ .

(٢) نظم الدرر ٥/٢٥٦ .

الدكتور أحمد بدوى من أن هذه الجملة توحي بالرفق والحنان في معاملتهن ، ولهذه الجملة لطائف تناسبها في كثير من التراكيب ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ . . .﴾ (النساء:١٩) فدفعا للرفق بهن قال : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ ﴾ ، ولم يقل : لا ترثوا «فقد جاء قوله : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ ﴾ صريحا في التحريم قطعا للتأويل ، فلم يقل (لا ترثوا) حتى لا يوسوس الشيطان بأنه نهي ترشيدي تهذيبي لا نهي للوجوب القاطع»[1] .

ويناسبه ما جاء في معالجة من خيف نشوزهن ، من تقديم الموعظة أولا . . . ومعالجة شقاقهن ، ﴿ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا . . .﴾ (النساء:٣٥) مع تدبر ما في مفهوم هذا المعنى من التراحم والتواصل ، ولم يأت هاهنا إعلام بصورة الطلاق ، ناهيك عن هذا التعبير في الدعوة إلى العدل بينهن ، والرفق بهن وكثرة الأمر بالتقوى في هذا الوضع في قوله : ﴿ وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ . . . ﴾ (النساء:١٢٨) وقوله : ﴿ وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ (النساء:١٢٩) .

ويرجح إصابة قول البقاعي توزع الحديث بشأن النساء في أماكن متفرقة في أول السورة ووسطها ونهايتها ، كأن هذا التوزع يشير إلى اتحاد السورة في مقصودها وما بين الحديث عن شأنهن إنما وقع لخدمة هذا المقصود فهن اللائي تكون بهن الأرحام ؛ لذلك قد حظيت هذه السورة

(١) دلالة الألفاظ على المعانى عند الأصوليين ص٢٠ دكتور محمود توفيق .

ببيان حقوقهن والتلطف في معاملتهن . وهو أمر يناسب مطلع السورة في إفراد الأرحام بالأمر بالتقوى فعلى قراءة النصب يكون التقدير واتقوا الأرحام، وهو أمر هذه السورة .

ومن لطائف البقاعي ما قاله عند قوله تعالى : ﴿ **وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ** . . . ﴾ (النساء:٦٦) . «ولما كان مبنى السورة على الائتلاف ، وكان السياق للاستعطاف قال مرغبا : ﴿ **وَلَوۡ أَنَّهُمۡ** ﴾ [(١)] وهو ما يتناسب مع بناء معنى التقوى في مطلع السورة .

ومن لطائفه ـ رحمه الله ـ ما ذكره عند قوله تعالى : ﴿ **مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَا** . . . ﴾ (النساء:٨٥) «ولما كانت الشفاعة أعظمها في الإحسان قدمت ، لا سيما وموجبها الإعراض ، ومقصد السورة التواصل» [(٢)] وقد ذكروا أن المراد بالشفاعة هنا «شفاعات الناس بينهم في حوائجهم» [(٣)] وقد ناسب تركيب هذه الآية مطلع السورة وناسب ما بعده ـ لا سيما أن من خصائص هذه السورة الحديث عن التحية التي تؤدي إلى التواصل ، كما دل على ذلك الحديث قال تعالى بعد الآية السابقة : ﴿ **وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآ** . . . ﴾ (النساء:٨٦) وهو ما يناسب مقصود السورة المجمل في مطلعها كما ذكر شيوخنا ـ رحمهم الله ـ .

ومن لطائف البقاعي ما ذكره عند قوله تعالى : ﴿ **وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ** . . . ﴾ (النساء:١٢٧) قوله : «ولما كان المقام بكثرة الاستفتاء محتاجا إلى زيادة الاعتناء قال : ﴿ **قُلِ ٱللَّهُ** ﴾ آمرا معبرا بالاسم

---

(١) نظم الدرر ٣١٩/٥ .

(٢) نظم الدرر ٣٥٢/٥ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٩٥٧/٢ .

الأعظم منبها على استحضار ما ذكر في أول السورة»[1] ولعل ذلك فيه تنبيه على ما في مطلع السورة من الأمر بتقوى الله في الأرحام ، وهذه الآية تفصل مناسبة قوله تعالى : ﴿ **وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ** . . . ﴾ (النساء:٣) لقوله قبل : ﴿ **وَآتُوا الْيَتَامَىٰ** . . . ﴾ (النساء:٢). فعن عائشة أنها قالت «هي اليتيمة تكون في حجر وليها تشاركه في ماله فيعجبه مالها وجمالها فيريد وليها أن يتزوجها من غير أن يقسط في صداقها ..»[2].

ومن لطائف البقاعي ما ذكره عند قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ** . . . ﴾ (النساء:١٣٥) «ولما كان أعظم مباني هذه السورة العدل قدمه فقال : بالقسط بخلاف ما يأتي في المائدة»[3] . . وهو من أدق ما ذكره البقاعي .

وقد استشكل الرازي وصف الرجال بالكثرة دون النساء في مطلع السورة فقال : «فإن قيل : لِمَ لَمْ يقل : وبث منهما رجالا ونساء كثيرا ؟ ولم خص وصف الكثرة بالرجال دون النساء؟ قلنا : السبب فيه ـ والله أعلم ـ أن شهرة الرجال أتم فكانت كثرتهم أظهر فلا جرم خصوا بوصف الكثرة ، وهذا كالتنبيه على أن اللائق بحال الرجال الاشتهار والخروج والبروز ، واللائق بحال النساء الاختفاء والخمول»[4] ألا يمكننا أن نعتبر أن هذا الاستنباط تلميح إلى قوامة الرجال الذي جاء في هذه السورة الكريمة ، وعرض خصائصها قال تعالى : ﴿ **الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ**

(١) نظم الدرر ٤١٧/٥ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٦٧٧/٢ .
(٣) نظم الدرر ٤٣١/٥ .
(٤) مفاتيح الغيب ٦٥١/٤ .

﴿ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ . . . ﴾ (النساء:٣٤) . لعلك معي في وضوح هذه المناسبة وقد علل البيضاوي لهذا الاستشكال بقوله : «واكتفى بوصف الرجال بالكثرة عن وصف النساء بها ، إذ الحكمة تقتضي أن يكن أكثر . . . .»[1] «وهو جواب قريب على أي حال ، فأي قيمة لهذا الوصف ، وكان التعبير سيستقيم بقوله : رجالا ونساء إذ الكثرة في النوعين مستفادة بقرينتين بقوله : ﴿ وَبَثَّ ﴾ وما فيها من التفرق والانتشار ، والتنكير في ﴿ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ ﴾ .

ويراعى ما في هذا المطلع من ختامه بهذا التذييل : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ وشيوع جمل التذييل في هذه السورة الكريمة بأوصاف لله تقارب هذا الوصف : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٗا ﴾ . . ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴾ . . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ . . ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ . . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا ﴾ . . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا ﴾ . . ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا ﴾ (النساء:٣٣، ٦، ١١، ٢٦، ٣٢، ٣٥، ٣٩).. وغير هذه التراكيب فإنا اجتزأنا منها مُثُلا . مع مراعاة أن هذا الوصف لم يقع إلا في هذه السورة تناسبا مع تكرار الأمر بالتقوى في مطلعها ، ويبدو أن هذا التركيب من خصائص الحديث عن علاقات المواصلة ، فلم يقع إلا في سورة الأحزاب تذييلا للحديث عن أزواج النبي ﷺ : ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبًا ﴾ (الأحزاب:٥٢) هذا ما هدانا إليه تدبر مطلع سورة النساء على هدى مقالات علمائنا . وقد ختمت السورة بالحديث عن

---

(١) أنوار التنزيل ٢٠٢/١ .

النساء وبالتذييل الذي يتناسب مع المطلع أيضا ﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ . . .﴾ (النساء:١٧٣).

قال الفخر الرازي ـ رحمه الله ـ في هذا الموضع : «اعلم أنه تعالى تكلم في أول السورة في أحكام الأموال ، وختم آخرها بذلك ، ليكون الآخر مشاكلا للأول ، ووسط السورة مشتمل على المناظرة مع الفرق المخالفين للدين»[1] وقال أيضا : «واعلم أن في هذه السورة لطيفة عجيبة ، وهي أن أولها مشتمل على بيان كمال قدرة الله تعالى فإنه ـ سبحانه ـ قال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ . . .﴾ وهذا دال على سعة القدرة وآخرها مشتمل على بيان كمال العلم وهو قوله : ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ وهذان الوصفان هما اللذان بهما تثبت الربوبية والإلهية والجلالة والعزة»[2] . ﴿ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ .

* * *

(١) مفاتيح الغيب ٥٤١/٥ .

(٢) مفاتيح الغيب ٥٤٣/٥ .

سورة المائدة

يروي القرطبي والشيخ محمد صديق خان رواية يسندانها إلى النقاش أنه حكى «أن أصحاب الكندي قالوا له : أيها الحكيم اعمل لنا مثل هذا القرآن فقال : نعم ، أعمل مثل بعضه ، فاحتجب أياما كثيرة ثم خرج فقال : والله ما أقدر ، ولا يطيق هذا أحد ، إن فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة ، فنظرت فإذا هو قد نطق بالوفاء ، ونهي عن النكث ، وحلل تحليلا عاما ، ثم استثنى استثناء بعد استثناء ، ثم أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين ، ولا يقدر أحد أن يأتي بهذا إلا في أجلاد»[1] .

وذلك الذي أعجز الكندي ـ كما أعجز غيره ـ هو قوله تعالى : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ** ﴾ (المائدة:١). . وهو الذي يمثل مطلع هذه السورة الكريمة ، وهو مثل لتزاحم المعاني وتراكمها ، وترابطها ، وإحكام ترتيبها ، وفي نظمه إشارات لوجوه جريان المعاني في السورة ، ومطالع سور الذكر الحكيم تتفرد بتراكيب وألفاظ استوقفت شيوخنا ، ولنا في وقفاتهم بصائر تهدينا إلى استخراج العلاقة من ذلك أنه لم يجر استعمال لفظ العقود بدل العهود إلا في مطلع هذه السورة الكريمة ، وقد تأول كثير من السلف العقود بالعهود ، وذكروا وجوها في معنى العقود ، رجحوا منها ما تناسب مع ما جاء في السورة الكريمة ، قال محمد

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢/٢١٣٠، وفتح البيان في مقاصد القرآن ٢/٤٢٤، ٤٢٥ .

ابن جرير ـ رحمه الله ـ بعدما أورد تأويلات السلف مستظهرا قول ابن عباس ، ذاكرا أن معناه : «أوفوا يأيها الذين آمنوا بعقود الله التي أوجبها عليكم ، وعقدها فيما أحل لكم وحرم عليكم ، وألزمكم فرضه ، وبين لكم حدوده ، وإنما قلنا : ذلك أولى بالصواب من غيره من الأقوال ، لأن الله ـ جل وعز ـ أتبع ذلك البيان عما أحل لعباده وحرم عليهم ، وما أوجب عليهم من فرائضه فكان معلوما بذلك أن قوله : ﴿ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ ﴾ أمر منه عباده بالعمل بما ألزمهم من فرائضه وعقوده عقيب ذلك ، ونهى منه لهم عن نقض ما عقده عليهم منه ، مع أن قوله : ﴿ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ ﴾ أمر منه بالوفاء بكل عقد أذن فيه ، فغير جائز أن يخص منه شيء حتى تقوم حجة بخصوص شيء منه يجب التسليم لها ، فإذا كان الأمر في ذلك كما وصفنا ، فلا معنى لقول من وجه ذلك إلى معنى الأمر بالوفاء ببعض العقود التي أمر الله بالوفاء بها دون بعض»[1].

وهو ما يتناسب وجريان العقود في السورة الكريمة ، فهي شاملة كل العقود سواء أكان ذلك بين العبد وربه ، أو بين العبد والعبد ، وقد رجحه جار الله العلامة قائلا ـ بعدما أورد القول بأنها العقود التي بين العباد «والظاهر أنها عقود الله عليهم في دينه من تحليل حلاله ، وتحريم حرامه ، وأنه كلام قدم مجملا ثم عقب بالتفصيل»[2] . وكلمته الأخيرة تلك هي العلاقة بين مطلع السورة ومقصودها وقد تولد من قول الزمخشري قول الرازي الحنفي ـ كاشفا عن المناسبة بين الجملة الأولى والجملة الثانية ـ : «المراد بالعقود عهود الله عليهم في تحليل حلاله وتحريم حرامه ، فبدأ

(١) جامع البيان ٦/٣٣ .
(٢) الكشاف ١/٥٩١ .

بالمجمل ، ثم أتبعه بالمفصل من قوله ﴿ أُحِلَّتْ ﴾ وقوله بعده : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ﴾ »[1] .

وما ذكره الشيخ الألوسي ـ رحمه الله ـ في قوله : « واستظهر الزمخشري كون المراد بها عقود الله تعالى عليهم في دينه من تحليل حلاله ، وتحريم حرامه لما فيه ـ كما في كشف الكشف ـ من براعة الاستهلال والتفصيل »[2].

وما ذكره العلامة ابن عاشور في قوله : « وقد احتوت هذه السورة على تشريعات كثيرة تنبئ بأنها أنزلت ، لاستكمال شرائع الإسلام ، ولذلك افتتحت بالوصاية بالوفاء بالعقود ، أي بما عاقدوا الله عليه حين دخولهم في الإسلام ، من التزام ما يؤمرون به فقد كان النبي ﷺ يأخذ البيعة على الصلاة والزكاة والنصح لكل مسلم كما في حديث جابر بن عبد الله في الصحيح ، وأخذ البيعة على الناس بما في سورة الممتحنة ، كما روى عبادة بن الصامت . ووقع في أولها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ فكان طالعتها براعة استهلال »[3] .

وكما كان في تأويلاتهم معنى العقود نظر إلى ما جاء في السورة كان في توجيهاتهم استخدام العقود بدلا من العهود نظر إلى معاني السورة الكريمة أيضا ، فقد ذكر الزمخشري أن العقد « العهد الموثق شبه بعقد الحبل ونحوه »[4] وبسط الفخر الرازي هذا القول فذكر أن « العقد هو

---

(١) مسائل الرازى وأجوبتها ص٩١ .

(٢) روح المعاني ٤٨/٦ .

(٣) التحرير والتنوير سورة المائدة ص٧٢، ٧٣ .

(٤) الكشاف ٥٩٠/١ وذكر الراغب أن العقد : الجمع بين أطراف الشيء ويستعمل ذلك في الأجسام الصلبة كعقد الحبل وعقد البناء ثم يستعار ذلك للمعاني والعهد ـ حفظ الشرع ومراعاته حالا بعد حال وسمي الموثق الذي يلزم مراعاته عهدا ، المفردات (عقد ـ عهد) ص٣٤١، ٣٥٠ .

وصل الشيء بالشيء على سبيل الاستيثاق والإحكام ، والعهد إلزام ، والعقد التزام على سبيل الإحكام»[1].

ثم يكشف عن مناسبة الأمر بالوفاء بالعقود للإيمان قائلا : «ولما كان الإيمان عبارة عن معرفة الله تعالى بذاته وصفاته وأحكامه وأفعاله ، وكان من جملة أحكامه ، أنه يجب على جميع الخلق إظهار الانقياد لله تعالى في جميع تكاليفه وأوامره ونواهيه ، فكان هذا العقد أحد الأمور المعتبرة في تحقيق ماهية الإيمان . . . وإنما سمى الله تعالى هذه التكاليف عقودا ـ كما في هذه الآية ـ لأنه تعالى ربطها بعباده ، كما يربط الشيء بالحبل الموثق»[2] .

وينبهنا هذا التأويل لمعنى العقود إلى أن جل ما جاء في هذه السورة الكريمة من التحليل والتحريم، تكميل وتتميم لما جاء في السور الأخرى، وجاءت التراكيب موفية بهذا الغرض ، وقد نبهنا جلال الدين السيوطي إلى ذلك في قوله : «أما المائدة فسورة العقود ، تضمنت بيان تمام الشرائع ومكملات الدين . . . لأن منها تحريم الصيد ولهذا كثر فيها لفظ الإكمال والإتمام»[3] لذلك تجد في بدايات السورة قوله تعالى : ﴿ **ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا** ﴾ (المائدة:٣). . وهي من خصائص هذه السورة الكريمة، ولنتسمع إلى خفي كلام البقاعي: يقول مقررا مقصود السورة «ومقصودها : الوفاء بما هدى إليه الكتاب ، ودل عليه ميثاق العقل من توحيد الخالق ، ورحمة الخلائق شكرا للنعمة ، واستدفاعا للنقمة ، وقصد المائدة أدل ما فيها على ذلك ، فإن مضمونها :

(١،٢) مفاتيح الغيب ٥/٥٤٤ .

(٣) تناسق الدرر ، ص٧٧ .

أن من زاغ عن الطمأنينة ، وزاغ عن الثبات والسكينة بعد الكشف الضافي والإنعام الوافي ، نوقش الحساب فأخذه العذاب ، وتسميتها بالعقود أوضح دليل على ما ذكرت »[1].

وذلك المقصود الذي ذكره كائن في مطلع السورة الكريمة ، وقد كان ـ رحمه الله ـ ملتفتا إليه عند بيان الوجه في بعض تراكيب السورة ، يقول في نظم الدرر عند مطلع السورة : « ولما كان مدار هذه السورة على الزجر والإحجام عن أشياء اشتد إلفهم لها ، والتفاتهم إليها وعظمت فيها رغائبهم من الميثاق وما معها . . . ذكر في أولها بالعهود التي عقدوها على أنفسهم ليلة العقبة ، حين تواثقوا على الإسلام من السمع والطاعة في المنشط والمكره ، والعسر واليسر فيما أحبوا وكرهوا ، وختم الآية بقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾[2] .

وكلامه ـ رحمه الله ـ ناظر إلى ما في أثناء السورة من تحريم الأطعمة من الميتة ونحوها ، والنهي عن الخمر والميسر والصيد في الحرم ، وقد جاء الحديث عن هذه الأشياء مفصلا تفصيلا لم تفصله سورة أخرى ، وللغة في الأمور المتناولة في سور أخرى ـ طبيعة خاصة في سورة المائدة ، فكلها متناغية مع المطلع جارية في روافده ، فالأحكام جاءت هنا مؤكدة ، وقد أشار مطلع السورة من أول لفظة فيه إلى هذا الأمر ، فهي مفتتحة بنداء المؤمنين بيا النداء ، وشيوخنا يذكرون أن « (يا) أكثر أحرف النداء استعمالا ، وأنه لا ينادى اسم الله ـ عز وجل ـ إلا بهما ، وحين يقتضي السياق جملا من التوكيد كإضافة عناصر لغوية ذات تأثير في اللفظ والإيقاظ كأي التي

(١) مصاعد النظر ١٠٦/٢ .

(٢) نظم الدرر ٧/٦ .

للإيهام، وها التي للتنبيه حين ذلك لا تستعمل من الأدوات سواها، فيقولون: (يا أيها) ثم إن هذه الصيغة ذات العناصر المتكاثفة في النداء هي أكثر أساليب النداء ورودا في القرآن الكريم، وسر ذلك ـ كما ذكروا ـ هو أهمية المقاصد التي نادى الحق خلقه ليسمعهم إياها»[1].

وقد نبه عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ إلى لطيفة في النداء، يروى «أن رجلا أتى عبد الله بن مسعود فقال: اعهد إلى فقال: إذا سمعت الله يقول ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ فأرعها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهي عنه»[2].

وقد كان افتتاح السورة بهذا النمط من النداء داعية استنباط خاص لآية الوضوء للدكتور محمود توفيق عندما يقول: «فقد جاءت آية الوضوء في سورة المائدة التي كان مفتاح مضمونها البياني والتشريعي ومكتنزه، قول الحق ـ عز وعلا ـ ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ ﴾ . . . وفي العناية بتدبر هذا المكتنز، وذلك المفتتح عون على استبصار دقائق وحقائق بقية السورة»[3] ثم استطرد في الحديث عن المطلع محاولا استخراج مطاوي نظمه حثيثا حثيثا فذكر أن «التعبير عن المنادى عليه بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ إيماء إلى أن هذا الفعل عقد أبرموه بين خالقهم وأنفسهم فأول العقود وأحقها بالإيفاء عقد الإيمان والطاعة . . . وجاء التكليف الإجمالي المستجمع كل تكاليف السورة الآخذ بحجز الذين

(١) دلالات التراكيب ص٢٦٢، ٢٦٣ .
(٢) تفسير ابن كثير ٢/٢ .
(٣) دلالة الألفاظ على المعاني عند الأصوليين ص٦١ .

آمنوا من الدرك الأسفل إلى يفاع الطاعة معبرا عنه بقوله تعالى : ﴿ **أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ** ﴾[1] .

ثم قال ـ بعدما بين الفرق بين (أوفوا ـ وفوا) بالزيادة والتضعيف ، وأن الزيادة بالتضعيف تكون أدل على قوة الحدث ، والزيادة بالهمزة تكون أدل على ظهور الزيادة في الفعل ـ يقول : « في نور هذا نفهم وجه الأمر الإلهي في فاتحة سورة العقود بقوله : ﴿ **أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ** ﴾ دون وفوا أن ذلك من فيض رحمانيته ، حيث طلب إيجاد العناية والمبالغة بإيقاع الفعل من الذين آمنوا كل على قدره : ﴿ **لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا** ﴾ وإذا ما كان الحق ـ عز وعلا ـ قد اصطفى الفعل أوفوا على الفعل وفوا ، فإنه اصطفى في هذه الآية دون غيرها ذكر المأمور بالإيفاء به باسم العقود دون العهود ، على الرغم من أن القرآن يذكر دائما كلمة العهود ، ولم يذكر كلمة العقود إلا في هذه الآية ، والمعنى على أن كل عهد مع الله إنما هو عقد ، ولأن إحكامه وتوثيقه جاء من إسناده إليه ـ عز وعلا ـ فاستغنى بإسناده إليه في الدلالة على إحكامه وتوثيقه عن تسميته عقدا ويحمل على ذلك كل عهد بين مسلم ومسلم ، لأن الإسلام قد وثق وأحكم كل عهد بين مسلمين ، فصارت عهودهم عقودا ، فجاء بكلمة (عقود) في صدر سورة المائدة »[2] لتكون شاملة كل العهود .

ويبدو أن نداءات المؤمنين من خصائص هذه السورة ، لأنها سورة التكميل ، فقد جاءت نداءات المؤمنين فيها في ستة عشر موضعا[3] ، متناغية

---

(١) دلالة الألفاظ على المعانى عند الأصوليين ص٦٤ .

(٢) دلالة الألفاظ على المعانى عند الأصوليين ص٦٧، ٦٨ .

(٣) الآيات من سورة المائدة : ١، ٢، ٦، ١١، ٣٥، ٥١، ٥٧، ٨٧، ٩٠، ٩٤، ٩٥، ١٠١، ١٠٥، ١٠٦ .

مع ما يليها من أحكام مع مطلع السورة الكريمة ، وأطول سور القرآن الكريم قاطبة : سورة البقرة ، وقد جاءت نداءات المؤمنين فيها في عشرة مواضع[١] .

مع مراعاة أن السورتين المفتتحتين بنداءات المؤمنين لم تشع فيهما نداءات المؤمنين شيوعها في هذه السورة ، والذي يعضد هذه الخصيصة أن السورتين المفتتحتين بنداءات الناس لم تكثر فيهما نداءات الناس كما كثرت في غيرها ، فسورة النساء مع افتتاحها بنداء الناس إلا أن نداءات الناس جاءت فيها في ثلاثة مواضع[٢] ، وقد جاءت في الحج في أربعة مواضع[٣] ، ويونس لم تفتتح بنداءات الناس وقد جاء ذلك في أربعة مواضع[٤] ، وفاطرفى ثلاثة مواضع[٥] .

لذلك فقد جاءت التكاليف في هذه السورة على أبلغ أوجهها ، فتحريم الميتة مع أنه جاء في عدة مواطن من الذكر الحكيم ، إلا أنا نلمح في هذه السورة تفصيلا لم نره في المواضع الأخرى[٦] ، لأن تحريم الميتة وغيرها جاء هنا مقترنا بعبادات ألفوها : ﴿ **وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَـٰمِ** ﴾ (المائدة:٣) وقد لاءم هذا التفصيل ما جاء في الآية من قوله : ﴿ **ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى** ﴾ وبتدبر آيات التحريم

(١) الآيات من سورة البقرة : ١٠٤، ١٥٣، ١٧٢، ١٧٨، ١٨٣، ٢٠٨، ٢٥٤، ٢٦٤، ٢٦٧، ٢٧٨، ٢٨٢ .

(٢) الآيات من سورة البقرة النساء :١، ١٧٠، ١٧٤ .

(٣) الآيات من سورة البقرة الحج : ١، ٥، ٤٩، ٧٣ .

(٤) الآيات من سورة البقرة يونس : ٢٣، ٥٧، ١٠٤، ١٠٨ .

(٥) الآيات من سورة البقرة فاطر : ٣، ٥، ١٥ .

(٦) الآيات : البقرة ١٧٣، والأنعام ١٤٥، والنحل ١١٥ .

المناظرة لهذه الآية ترى خصائص لهذه الآية ، فقد ختمت الآية في البقرة بقوله : ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١٧٣) وفي الأنعام : ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١٤٥) وفي النحل ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١١٥) وفي سورتنا هذه ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ هذان القيدان اللذان في جملة الشرط ﴿ فِى مَخْمَصَةٍ ﴾ . ﴿ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ﴾ يتناسبان مع مفتتح السورة ، فهما يضيفان تشديدا في مسائل الضرورات ، يناسب الترقي في درجات الإيمان ويشاكلان التكميل الذي تسير السورة على لاحبه في كل الأحكام مع مراعاة تدبر معنييهما[1].

وتحريم الخمر في البقرة جاء جوابا لسؤال ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ (البقرة:٢١٩) وجاء في المائدة قاطعا قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (المائدة:٩٠) وشدد بما بعده من قوله : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ (المائدة:٩١) ولذلك فقد كرر الأمر بالطاعة عقب هذا الأمر ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (المائدة:٩٢) .

---

(١) قال الراغب قوله تعالى : (في مَخْمَصَةٍ : أي مجاعة تورث خمص البطن أي ضموره وأصل الجنف : الميل في الحكم . ينظر : المفردات (مادة خمص : ص١٥٩، ومادة جنف : ص ١٠١) .

والمتدبر آيات القصاص هنا وفي البقرة يرى التفصيل والتشديد في التكليف المتناغي مع مطلع السورة ، تدبر خواتيم الآيات التي بعد الحدود فقد قال أولا ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (المائدة:٤٤) ثم قال : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (المائدة:٤٥) ثم قال:﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (المائدة:٤٧) .

وهذا التشديد في عقوبة ترك التكليف يعد من خصائص هذه السورة الكريمة ، ولأن أول العقود الإيمان بالله وحده ، فقد صنف هنا معتقدات النصارى مؤكدا إبطالها بمؤكدات متعددة ، فقد قال أولا : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ (المائدة:١٧) ثم ذكر هذا المعنى في نفس السورة فقال : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ﴾ (المائدة:٧٢) ثم قوله بعد : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ (المائدة:٧٣) ثم قوله ـ مكنيا عن بشرية المسيح وأمه بوصفهما بصفة أدل ما يكون على البشرية ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾ (المائدة:٧٥) .

وفي إطار مفتتح السورة بالأمر بالوفاء بالعقود ، افتتح قصص بني إسرائيل بذكر ميثاق بني إسرائيل ، والوعد للوفاء به ، والوعيد على نقضه مجملا كل ذلك في الآية الأولى من ذكر حلقة من حلقات قصتهم : ﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ

﴿ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (المائدة:١٢).

والقرآن فيه باعث للنظر في نظوم القصص ، فأول المواثيق ورأس العقود الإيمان والتوحيد ، فنقضه النصارى ، لذلك جاء أول شيء في قصصهم ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ . . . ﴾ ثم نقضوا ميثاق تأييد الرسل . وخالفوا موسى عليه السلام في دخول الأرض المقدسة وأعقب ذلك بقصة ابني آدم ، وإخلاف أحدهما ما كان تعاهد عليه من الاحتكام إلى تقبل القربان ، ثم ذكر حد الحرابة وكل ذلك واقع في إطار الميثاق الذي أجمله ربنا في الآية الأولى .

ثم قصة إهمالهم الاحتكام إلى منهج الله الذي فرضه عليهم ، فالإجمال ثم التفصيل ظاهر في السورة من خلال تدبر النظم الحكيم الذي يسير في نظام الأمر بالوفاء بالعقود ، ثم مخالفة الأقوام للعقود ، ثم عقوبة ذلك في كل السورة الكريمة ، تدبر المناسبة بين قوله في أول الميثاق ﴿ وَأَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ ثم قوله في السورة ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ ﴾ (المائدة:٥٨) مع مراعاة أن ذكر الأذان من خصائص هذه السورة ، فلم يقف نقض العهد من اليهود عند التقصير في إقامة الصلاة ، فلم يكن العهد بالصلاة ، لأن القرآن الكريم لم يقل لئن صليتم وزكيتم . . . وإنما غير النظم بما جاء به للحث على عدم التقصير في الصلاة من كل جوانبها فلما كان الأمر في هذ السورة على ذكر أشنع الناس وبيان دأبهم في مخالفة العهد ونقضه ، ذكر استهزاءهم بالأذان ، الذي يعلم بالعهد الذي أخذه الله عليهم ، فلله هذا النظم المعجز .

ثم تدبر عهدا آخر ﴿ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ وتبيين نقضه والاستهزاء به كدأبهم في عهد الصلاة تدبر ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ (المائدة:٦٤) ثم تدبر الوعيد على نقض العهد ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ﴾ (المائدة:١٣) .

بوسعنا بأدنى تدبر أن نستكشف المناسبة بين العهد بين الله وبين بنى إسرائيل تجاه ربهم ، وبين كل ما جاء في السورة من ذكر أحوالهم .

تدبر أسلوب التحسر واستشعار الندم في قوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ (الآيتان:٦٥ ، ٦٦) . وذلك وعد الله على الوفاء بالعهد في الآية الثانية عشرة .

إن النظم المعجز ينبهنا إلى استخراج العلاقات في السورة الواحدة ، حتى لا يضيع خيط مقصود السورة الذي أجمل في مطلعها ، فعندما شرع في ذكر اليهود أجمل كذلك في مطلع قصصهم كما ذكرت شيئا منه .

وكانت تلك الكلمات فيضا من نور كلمة الرازي ـ رحمه الله ـ عند قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ . . . ﴾ (المائدة:١٢) قال ـ رحمه الله ـ : « اعلم أن المقصود بيان عتو بني إسرائيل عن الوفاء بعهد الله ، وهو متعلق بما افتتح الله به السورة ، وهو قوله تعالى : ﴿ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ﴾[1] وتلك فيوضات كلام أهل البصيرة .

---

(١) مفاتيح الغيب ٩٧/٦ .

فطبيعة اللغة وجريانها ، وأخذ النظم بحجز بعض في سبيل الوفاء بمقصود السورة ، أمران ظاهران في السورة .

ثم إن قوله تعالى قبل ذكر اليهود : ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (المائدة:٧) حلقة وصل ورابطة بين الأمر بالوفاء بالعقود في مطلع السورة ، وقصة نقض الميثاق التي أخذت معظم السورة في بنى إسرائيل والآية عند الفخر ـ رحمه الله ـ «مشابهة لقوله تعالى في أول السورة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ . . . ﴾ »[1] .

وينفذ البقاعي ببصيرته ، ليكشف لنا عن اختلاف النظم بالتقديم والتأخير في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ (المائدة:٨) يقول ـ رحمه الله ـ «ولما كان مبنى السورة على الوفاء بالعهد الوثيق ، وكان الوفاء بذلك إنما يخفى على النفوس ويصح النشاط فيه ، ويعظم العزم عليه بالتذكر بجلالة موثقه ... قدم قوله : ﴿ لِلَّهِ ﴾ بخلاف ما مضى في النساء»[2] وهذا أمر يستخرج بالنظر المستأني في مقصود السورة ، والنظر في نظمها كلية ، وقد مضى ما ذكرناه في نظير هذه الآية في سورة النساء .

وقد كان شيوخنا ينظرون إلى وجوه النظم في السورة ملتفتين إلى المطلع ، يقول الرازي في آية الوضوء «اعلم أنه تعالى افتتح السورة بقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ﴾ وذلك لأنه حصل بين الرب وبين العبد عهد الربوبية ، وعهد العبودية ، فقوله تعالى : ﴿ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ﴾

(١) مفاتيح الغيب ٥/٦١٧، ٦١٨ .
(٢) نظم الدرر ٦/٤٠ .

طلب تعالى من عباده أن يفوا بعهد العبودية ، فكأنه قيل : إلهنا العهد عهد الربوبية منك ، وعهد العبودية منا كأنه يقول : قد وفيت بعهد الربوبية فيما يطلب في الدنيا من المنافع واللذات ، . . . فاشتغل أنت في الدنيا بالوفاء بعهد العبودية ، ولما كان أعظم الطاعات بعد الإيمان الصلاة ولا يمكن إقامتها إلا بالطهارة لا جرم بدأ تعالى بذكر شرائط الوضوء»[1] .

وكان النظر إلى الآية في سياق مفتتح السورة معليا لبعض استنباطات الأصوليين عند الدكتور محمود توفيق قى قوله : «تفتتح آية الوضوء بما تفتتح به السورة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ فكان فيه ما في فاتحة السورة من تأكيد ، فتأكيد التذكير بما أخذ عليهم من ميثاق الإيمان»[2] .

وبعد حديثه عن اختلاف الأصوليين في دلالة الباء في قوله : ﴿ بِرُءُوسِكُمۡ ﴾ يقول : «والوعي البياني في نور ما سبق استبصاره من المقصود الأعظم الذي ترمي إليه السورة كلها يعلي القول بأن مسح الرأس كلها ، وتأكيد إلصاق اليد به ، هو الغرض في مقام الإحسان الذي تحدو السورة بالذين آمنوا عيسها إليه ، وأن ما يؤذن بجواز مسح بعض الرأس ، إنما هو إيذان ملفوف بملابسات وأحوال دلت عليها السنة الثابتة»[3] .

ثم انتهى إلى «أن التكاليف التي أمر بها الذين آمنوا في السورة لا يكتفي فيها بالحد الأدنى من تحقيق الطاعة ، لأن ذلك فصم لهذه التكاليف عن مساقها والمقصود الأعظم لسورتها وهذا ظلم في شرعة المحسنين»[4] ثم ذكر ما نحاول تأكيده في عرض هذا البحث ملخصا إياه

---

(١) مفاتيح الغيب ٥/٥٧٩ .

(٢) دلالة الألفاظ على المعانى عند الأصوليين ، ص٧٠ .

(٣) دلالة الألفاظ على المعانى عند الأصوليين ، ص٨١ .

(٤) المرجع نفسه ، ص٩٤ .

« إن التدبر البياني أعلى بعض استنباطات الفقهاء على بعض من منظور السياق العام والخاص للسورة والآية ، ولا يعني هذا تخطئة ما أدناه فصما للآية عن خصائص ما أنزلت على لاحبه ، وذلك ما ينفر منه المقربون »[1].

لكن استخراج هذه اللطائف يحتاج إلى كدٍّ ووكد ، واستبطان لنصوص البيان المعجز ، ولما كانت التكاليف على وجه التكميل في هذه السورة نودي النبي ﷺ بلفظ التكليف تناسبا مع مقصود السورة ، وتكرر ذلك في موضعين ، ولم يقع غيرهما في الذكر الحكيم ، وقد وجه ذلك الفخر الرازي فقال : « وهذا الخطاب لا شك أنه خطاب تشريف وتعظيم »[2] وأحسب أن المخاطبة بهذا الوصف أنسب للتكليف .

ومما له علاقة بينه بأول السورة قوله تعالى : ﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ . . . ﴾ قال البقاعي ـ رحمه الله ـ في هذا الموطن : « ولما كان الإحرام ، وتحريم الصيد فيه ، إنما هو لقصد تعظيم الكعبة ، بين ـ تعالى ـ حكمة ذلك ، وأنه كما جعل الحرم والإحرام سببا لأمن الوحش والطير جعله سببا لأمن الناس . . . فقال مستأنفا بيانا لحكمة المنع في أول السورة من استحلال من يقصدها للزيارة : ﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ . . . ﴾ ﴿ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ ﴾ أي الممنوع من كل جبار دائما الذي تقدم في أول السورة ، أني منعتكم من استحلال من يؤمه »[3] مع ضميمة أن تحريم الصيد في الحرم لم يقع إلا في هذه السورة الكريمة .

---

(١) دلالة الألفاظ على المعانى عند الأصوليين ، ص٩٥ .

(٢) مفاتيح الغيب ٢٢/٦ .

(٣) نظم الدرر ٣٠٦/٦ .

وكان مما ذكره ـ رحمه الله ـ عند قوله تعالى : ﴿ أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ ﴾ بعد بيان مناسبتها لما قبلها ـ قوله : «وقد نزعها إلى مجموع هذه السورة منازع منها ما تقدم من ذكر القتل الذي هو نوع من أنواع الموت عند قصة ابني آدم وما بعدها ، ثم تعقيب ذلك بالجهاد الذي هو من أسباب الموت ، وقوله تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ ﴾ ثم ذكره أيضا في قوله : ﴿ تُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تَخَافُونَ ﴾ ، وقد جرت السنة الإلهية بذكر الوصية عقب مثل ذلك من البقرة ، ولم يذكر عقب واحدة من الآيات المذكورة لزيادتها على آية البقرة بمنازع منها الحلف ، فناسب كونها بعد آية الإيمان ، ومنها تغليظ الحلف ، والخروج به عما يشاكله . . . فناسب ذكرها بعد تغليظ أمر الصيد في حال مخصوص ، وهو الإحرام والخروج به عن أشكاله من الأحوال»[1] والسلك الذي انتظم هذه المعاني بدايته في مطلع السورة الكريمة في ذكر العهود ، وتحريم الصيد ، ثم بين مناسبة المائدة لما مضى رابطا ذلك بمطلع السورة فقال : «ولما ذكر ـ سبحانه ـ هذه الأمة المدعوة من العرب ، وأهل الكتاب وغيرهم بنعمه عليهم في أول السورة بقوله : ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ . . . ﴾ وكانت هذه الآيات من عند ﴿ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ . . . ﴾ كلها في النعم ، أخبر أنه يذكر عيسى عليه السلام بنعمه في يوم الجمع إشارة إلى أنهم إن لم يذكروا نعمه في هذه الدار . . . ذكرها حين يذكرهم بها في ذلك اليوم قسرا بالكفر»[2] .

وكان ابن الزبير أصرح قولا في بيان هذه المناسبة ، وهو شيخ البقاعي في هذا الباب ـ قال ـ رحمه الله ـ «فلما طالب تعالى المؤمنين بالوفاء فيما

---

(١) نظم الدرر ٦/٣٣٤ .

(٢) نظم الدرر ٦/٣٣٩ .

نقض فيه غيرهم وذكرهم ببعض ما وقع في النقض ، وما أعقب ذلك فاعله ، وأعلمهم بثمرة التزام التسليم والامتثال ، أراهم ـ جل وتعالى ـ ثمرة الوفاء وعاقبته ، فقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ . . . ﴾ إلى قوله : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ﴾ إلى آخر السورة[1] . . . ووجه النظم فيها متشاكل مع المطلع كما بين علماؤنا ، وقد نبهنا الفخر الرازي إلى هذا التشاكل عند قوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ﴾ ذاكرا بعض أسرار الخاتمة جاعلا منها «أن مفتتح السورة كان بذكر العهد المنعقد بين الربوبية والعبودية ، فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ فمفتتح السورة من الشريعة ومختتمها بذكر كبرياء الله وجلاله وعزته وقدرته وعلوه»[2] .

فكما تبين لنا السورة من حيث معانيها ونظمها جارية في سياق واحد هو الوفاء بالعهود والوعد عليه ، ونقضها والوعيد عليه . وكما قال الدكتور عبد الله شحاته (وعلى وجه العموم : فإننا نجد سياق السورة كله يدور حول العقود والمواثيق في شتى صورها ، حتى حوار الله والمسيح يوم القيامة الوارد في نهاية السورة نجد سؤالا عما عهد به إليه ، وعما إذا كان قد خالف عنه»[3] وكل ذلك جاء متناغيا مع نداءات المؤمنين التي ذكرنا أنها من خصائص هذه السورة .

وهذا ما أعان الله به . . . ووفق إليه . . . والله أعلم .

* * *

(١) البرهان في تناسب سورة القرآن ، ص٨٩ .
(٢) مفاتيح الغيب ٢٠٥/٦
(٣) أهداف كل سور ومقاصدها ، ص٦٣ .

سورة الحج

ماذا وراء هذه التسمية؟ وليس في القرآن سورة الصلاة ولا سورة الصيام أي خصيصة لهذا الركن حتى تسمى باسمه سورة؟ وما الخصائص البلاغية لآياته هنا دون نظائرها في البقرة وفي آل عمران؟ وما العلائق الأسلوبية لآياته هنا بذكر زلزلة الساعة؟ وما العلائق الأسلوبية بينها وبين قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ ﴾ (الحج:١)؟.

هذه التساؤلات تناثرت الإجابة عنها في تراث الأمة ، ومع ندرتها يجل نفعها . والمطلع ـ بعد استقراء كلام الأئمة حول آيات السورة ـ هو قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ﴾ (الحج:١) «قال أبو جعفر : يقول : ـ تعالى ذكره ـ يأيها الناس احذروا عقاب ربكم بطاعته ، فأطيعوه ولا تعصوه ، فإن عقابه لمن عاقبه يوم القيامة شديد ، ثم وصف ـ جل ثناؤه ـ هول أشراط ذلك اليوم . . .»[1] .

ويدل كلامه على أن جملة ﴿ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ﴾ تعليل للجملة الأولى ، وتظاهر بيان جار الله على هذا المعنى فقال : «أمر بني آدم بالتقوى ، ثم علل وجوبها عليهم بذكر الساعة ، ووصفها بأهول صفة لينظروا إلى تلك الصفة ببصائرهم ، ويتصوروها بعقولهم حتى يبقوا على أنفسهم ، ويرحموها من شدائد ذلك اليوم ، بامتثال ما أمرهم به ربهم من التردي بلباس التقوى ، الذي لا يؤمنهم من تلك الأفزاع إلا أن يتردوا به»[2].

---

(١) جامع البيان ٨٥/١٧ .

(٢) الكشاف ٣/٣، ٤ .

وبيانه ـ رحمه الله ـ كاشف عن أن أهوال الساعة جاءت في السورة للحث على التقوى وأن المقصود بالنداء المكلفون كما قال القرطبي[1] ، وفي تعليق التقوى بذات الرب ـ كما قال ابن عاشور ـ «إيماء إلى استحقاقه أن يتقي لعظمته بالخالقية . . . ويقتضي بدلالة الاقتضاء معنى اتقاء مخالفته أو عقابه . . . لأن التقوى لا تتعلق بالذات بل بشأن لها مناسب للمقام»[2] فذكر الربوبية أفاد بطريق الحكمة استحقاقه تعالى بالتقوى وجماعها اتباع أوامره واجتناب نواهيه ، وذلك عقلا عدل ، فالرب منعم والمنعم مشكور بطريق التقوى ، وذلك في التقوى أولى درجاتها وأعظمها إخلاص النية في بذل الهدى الذي يكون من الأنعام التي هي من نعم الرب على طريق الشكر الذي يكون عند التكبير والذكر في يوم الحج الذي تتباين فيه درجات التقوى ، ويَفْصِل في هذه الدرجات إخلاص التقوى في بذل الهدى الذي هو من نعم الرب ، وذلك يكون في يوم الحج (الجمع) الذي يذكر بيوم الجمع الأكبر (الساعة) وليس في أركان الإسلام الأخرى ما يذكر بهذا اليوم ، ولا حتى الجهاد على تعاظم ثوابه . .

كل ما أثرناه من تساؤلات تكتنز الإجابة عنها عبارة البقاعي في تقريره مقصود السورة يقول ـ رحمه الله ـ : «ومقصودها : الحث على التقوى المعلية عن دركة الاستحقاق الحكيم بالعدل ، إلى درجة استئهال الأنعام بالفصل في يوم الجمع لطيف التذكير به»[3] .

الحديث عن التقوى جاء في مطلع السورة ، وفي الحديث عن الحج ، وفي آخر السورة من قوله تعالى : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ**

(١) ينظر : الجامع لأحكام القرآن ٤٥٣٥/٦ .
(٢) التحرير والتنوير ١٨٦/١٧ .
(٣) مصاعد النظر ٢٩٤/٢ .

﴿ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ . . . ﴾ إلى آخر السورة فآذن هذا التوزع للمقصود بتشارب الآيات التي بين هذه المواضع من نور هذا المقصود ، وقد أبان كلام الأئمة ـ كما مضى ـ أن زلزلة الساعة سبيل الحث على التقوى أمر هذه السورة ، وهم يختلفون في وقت حصول هذه الأهوال على قولين **أحدهما** : أن ذلك في الدنيا بقرائن ما ذكر من أهوالها من ذهول المرضعات ووضع الحوامل وسكر الناس ، فهي من مظاهر الدنيا .

وثانيهما : أن ذلك بعد نفخة القيام لرب العالمين ، وهو ما استظهره ابن جرير ، ويرجحه ما رواه الترمذي عن عمران بن حصين أن النبي ﷺ لما نزلت : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ . . . ﴾ قال : أنزلت عليه هذه الآية ، وهو في سفر فقال : أتدرون أي يوم ذلك؟ فقالوا : الله ورسوله أعلم قال : ذاك يوم يقول الله لآدم : ابعث بعث النار ، قال : يارب وما بعث النار؟ قال : تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحدا إلى الجنة . . . إلى آخر الحديث[1] .

وكون الجملة ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ . . . ﴾ تعليلا « يقتضي أن لزلزلة الساعة أثرًا في الأمر بالتقوى ، وهو أنه وقت لحصول الجزاء على التقوى وعلى العصيان ، وذلك على وجه الإجمال المفصل بما بعده في قوله : ﴿ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ »[2] .

والرأي الثاني هو الناظر إلى آيات السورة وجريانها ، والرأي الأول هدانا إلى استبصار علاقة بين أهوال الساعة ـ التي هي من خصائص

---

(١) يراجع : جامع البيان ٨٥/١٧، ٨٦، والكشاف ٣/٣، والجامع لأحكام القرآن ٤٥٣٥/٦ .

(٢) البحر المحيط ٣٤٩/٦، والتحرير والتنوير ١٨٦/١٧ .

السورة ـ وأطوار التخليق ، واهتزاز الأرض للإنبات ، وهما دليلا البعث في هذه السورة الذي هو محل الجدل ، والذي تعقبه هذه الأهوال التي هي سبيل الحث على التقوى في هذه السورة ، وفي البعث ـ محل الأهوال المذكورة ـ الجزاء والعقاب ـ تتفاوت دركات الإنكار له ، ودرجات الإيمان به والمؤمنون به والمنكرون له خصمان ولكل مثوى وعاقبة .

أرأيت كيف استتبع المقصود سبيلا في الحث عليه ، واستتبع ذلك السبيل تقريرا ـ ليصح ويستقر ـ بدفع ما يثار حوله من خصومة وجدل واقتضى ذلك البيان عن مآل الخصمين ، ثم ذكرت السورة مقصودها في أعلى مستوياته في آيات الحج ، ثم عادت السورة إلى تقرير سبيل الحث على مقصودها بوجه آخر ، ينظر إلى ما ذكر قبل آيات الحج أحاطت آيات سبيل الحث على المقصود آيات الحج من بين يديها ومن خلفها ، وأحاطت آيات المقصود آيات سبيل الحث عليه (البعث ومستتبعاته) في أول السورة وفي آخرها ، بهذا الإحكام الذي لا تتناهى عجائب تدبره وتحليله .

ودونك لطائف ذكرها أهل العلم ـ وحاولنا تفهمها ـ تتأيد بها هذه الدعوى الهول المذكور هاهنا (هول زلزلة الأرض) (وهول يعترى الخلق) وللبعث في هذه السورة دليلان (دليل أطوار التخليق) (ودليل اهتزاز الأرض للإنبات وإنباتها من كل زوج بهيج) إن القرآن يجبرنا على فهم مظاهر الكون وتبصره على وجه يهدم ما قرره الناس من قوانين علمهم ، لأن مظاهر الكون تذكير به ـ جل وعلا ـ ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ . . . ﴾

(آل عمران: ١٩٠ ، ١٩١) .

الزلزلة مصدر مضاف إلى فاعله سواء أكان من زلزل المتعدي أو اللازم كما ذكر أبو البقاء والمفعول به تقديره الناس فيما قال ، والأحسن منه أن يكون الأرض كما قال السمين الحلبي فيما نقله الشيخ الجمل ، وفيما ألمع به الزمخشري[1] من أنها الزلزلة المذكورة في قوله تعالى : ﴿ **إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا** ﴾ (الزلزلة:١) وفي إضافة الزلزلة مجاز عقلي ، يدل على اتساع أهوال الساعة ، ويستدعي كل آيات الذكر الحكيم الدالة على اضطراب نظام الكون الذي به تتبدل الأرض غير الأرض والسموات والزلزلة زلزلة الأرض محل الهول ، ومناط الدليل على البعث في السورة ﴿ **وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ** ﴾ (الحج:٥) ضعها بإزاء آية فصلت ﴿ **وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ** ﴾ (فصلت:٣٩) في سياق السجود والخشوع يفهم اهتزاز الأرض على أنه خضوع وتسبيح ، وفي سياق ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ** ﴾ (الحج:٥) هاهنا يفهم الاهتزاز على أنه تذكير بزلزلة الساعة ، ودلك القرآن على هذا الفهم بقوله : في الحج ﴿ **هَامِدَةً** ﴾ كما يصير الإنسان بعد أطواره بالموت جثة (هامدة) ، ودلك على المراد الآخر في فصلت بقوله : ﴿ **خَٰشِعَةً** ﴾ وآيات أطوار التخليق جاءت في مواضع أخرى[2] ، إلا أنها لم تسق دليلا للبعث كما سيقت هاهنا بصريح القول ، ولا يدفع ما فهم في التنظير بين الآيتين أن آية فصلت ختمت بقوله : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ** ﴾ (فصلت:٣٩) لأن آية الحج ختمت بما يجبرنا

---

(١) راجع : الكشاف ٣/٣، وإملاء ما من به الرحمن ٢٣/٤، والفتوحات الإلهية ١٥١/٣ .

(٢) النحل ٧٠، والمؤمنون ١٢، ١٣، ١٤، والروم ٥٤، وغافر ٦٧ .

على وضعها في سياق أطوار التخليق المسوق للبعث بقوله : ﴿ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٍ ﴾ (الحج:٥) ألست ترى أن الدليل الثاني اكتفى بما ساقه الدليل الأول من أطوار التخليق ، فجاء بقوله : ﴿ بَهِيجٍ ﴾ لينظر به إلى قوله : ﴿ ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ﴾ وإن استشكل بأن الله جاء بهذا الوصف لإنبات الأرض في سورة (ق) في قوله : ﴿ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٍ ﴾ (ق:٧) فإنه يدفع بما اختصت به سورة الحج عند سياقة نفس الأدلة على البعث بوجه آخر ـ بعد عرض آيات الحج وغيرها ، وذلك قوله : ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴾ (الحج:٦٣) وضع قوله : ﴿ مُخۡضَرَّةً ﴾ إزاء قوله : ﴿ بَهِيجٍ ﴾ في هذا السياق تعظم عندك هذه اللطيفة ، فإن بهجة الزرع تكون في غاية اخضراره .

ساقنا إلى الحديث عن الدليل الثاني ما ذكر من الهول أولا ، الهول الثاني كله خاص بالإنسان ، بل الملحوظ أنه يهتم بذهاب العقل من شدة هول ذلك اليوم ﴿ تَذۡهَلُ ﴾ ﴿ وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ ﴾ وأبان عن شدة هذا الذهول بقوله : ﴿ مُرۡضِعَةٍ ﴾ لأن المرضعة «التي هي في حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبي ، والمرضع التي شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به»[1] ، ألست تراه بالنص على حال الإرضاع ينظر إلى الدليل الأول على البعث في آيات أطوار التخليق ﴿ ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ﴾ وماذا في قوله : ﴿ وَتَرَى ٱلنَّاسَ ﴾؟ ألست تبصر أن الاهتمام بذهول العقل من شدة الهول ، مما يُعَرِّض بالمجادل الذي يأبى إلا اتباع كل شيطان مريد في إنكار البعث محل هذا الهول؟ الذي نبه السياق بعد على كبره وتعاظم إعراضه بما لم يقع في سورة أخرى إذ هو لم يعرض اتكاء

(١) الكشاف ٣/٤ .

على علم ، ولا استنادا إلى حجة ، ولكنه جاهل ﴿ **ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ** ﴾ (الحج:٩) أرأيت إلى هذا المكابر عندما يخذله ويطعنه استذكاره حال نفسه حين الحمل وحين الإرضاع؟ وكيف كان ضعيفا ذاهلا بمن حوله؟ ولئن أصر على ألا يستذكر فلتُصِرَّنَّ الدنيا كلها بوليده المحبوب لديه ، وبزوجه المؤثرة عنده ، وبأبناء الناس جميعا وأزواج الرجال جميعا الحوامل منهن ـ لتُصِرَّنَّ الدنيا على تذكيره هذا الحال ، ذلك نور سياق ذكر الساعة في مقصود الحث على التقوى يجبرنا على اتساع جهة النظر ليساقات آيات البعث في الذكر الحكيم كله ، وتناسبها مع مقاصد ما سيقت له ، والأمر كما ترى في هذا التعانق الذي حاولنا بيان شيء منه ، ثم يطيش كل قول بعد الانتهاء من تحبيره ، وتبقى دلالات كلمات الوحي بكرا كما كانت . . .

القرآن يدلنا إذا ما جادلنا في البعث مستكبرٌ في جهالة ألا نسوق له غير هذه الأدلة التي تخذل عقله وتهزم عزه .

الناس تجاه البعث ـ الذي هو محل الهول الذي هو سبيل الحث على التقوى أصناف ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ** ﴾ (الحج:٣، ٤) والذي وصف بعد سياقة الأدلة بالكبر ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ** ﴾ (الحج:٨) ﴿ **ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ** ﴾ (الحج:٩) إنه لا يكتفي بإعراضه وإنما يريد أن يعرض الناس جميعا عما أعرض عنه ، بل إنه لا يريد أن يستمع أحد إلى هذه الآيات التي تطعن عقله وتهزم عزه ، الذي يشيده اجتماع الدَّهْمَاء من حوله ، بل إنه يخشى على نفسه أن يؤمن إذا ما تليت عليه هذه الآي ، لأن قائده هو الشيطان المريد ، ولن تجد في آيات الجدل[1] كقوله : ﴿ **وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ** ﴾ (الحج:٣) .

---

(١) راجع في المصحف الشريف مثلا : الرعد ١٣، لقمان ٢٠، غافر ٥، ٤، ٣٥، ٥٦، ٦٩ .

ويسعى هذا الصنف بشياطينه في آيات الله محاولا إبطالها معاجزا ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ (الحج:٥١) وأمنية كل رسول ونبي أن يؤمن الناس جميعا ، وأمنية الشيطان المريد ، ومتبعيه ألا يؤمن الناس جميعا كلاهما طرف نقيض للآخر . . أولهما يبسط الآيات والحجج ، وأمنيته هداية الخلق وثانيهما يجتهد في إلقاء الشبهات ، وأمنيته إضلال الخلق ، فينسخ الله ما يلقيه الفريق الثاني وتتساقط شبهاتهم ، فلا يرى هذا الفريق إلا إبعاد المحيطين به عن مجرد الاستماع إلى هذه الآي ، وقد أبان الذكر الحكيم بآية ـ في هذه السورة دون غيرها ـ تبين عن قوة إحكام الله آياته وسلطانها ، وتبين مع ذلك عن قوة غيظ متبعي الشيطان المريد ، ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ (الحج:٧٢) .

وما قلناه تنوير كلمة الزمخشري عند قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ ﴾ (الحج:٥١) فيما يقول : « والمعنى سعوا في معناها بالفساد من الطعن فيها حيث سموها سحرا وشعرا ... ومن تثبيط الناس عنها سابقين أو مسابقين في زعمهم وتقديرهم طامعين أن كيدهم للإسلام يتم لهم »[1] .

والقيد الذي هو قوله : ﴿ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ﴾ (الحج:٣) هو الذي فسر لنا اختصاص السورة بقوله : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ ﴾ (الحج:٥٢، ٥٣) ونور هذا السياق هو الذي هدى ابن عاشور[2] إلى دفع ما حشيت به كتب

(١) الكشاف ١٨/٣ .

(٢) يراجع : التحرير والتنوير ٢٩٨/١٧ وما بعدها ، ولاحظ أن ما أبصرناه من نور بيانه عند الآية رحمه الله .

التفسير من أن الآيات نزلت في قصة الغرانيق بما ينأى عنه الذكر الحكيم ، وما تأباه عصمة النبيين .

المهم أن قوله : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ (الحج:٧٢) جاء ناظرا إلى قوله : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ ﴾ الواقع قبل سوق دليلي البعث وبعده ، ثم يأتي القرآن بمثل يبين عن ضعف الشركاء وضعف عابديهم في قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ . . .﴾ إلى قوله : ﴿ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ (الحج:٧٣) وهذا التذييل ربما يتأيد به ما رأيناه من كشف العلاقة بين دليلي البعث وهول الساعة .

وبعد هذا المثل تأتي آيات ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ . . .﴾ إلى آخر السورة لتجمع كل معاني التقوى ، فنحن إذن بوسعنا أن نتبين أن آخر السورة يجمع مقصودها كما أن أولها يجمع مقصودها ، والمقصود في أعظم درجاته في أوسطها ، وللتوصل إلى أعظم درجات مقصودها طريقان : إما أن نصل إليه من أولها إلى نهاية أعظم درجات مقصودها ، وإما أن نصل إلى أعظم درجات مقصودها من آخرها إلى أول آية فيه ، والبديع أنك تجد تراكيب الطريقين في الوصول إلى أعظم درجات مقصودها متقاربة .

خذ مثلا قوله ، قبل البيان عن المجادلين ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ (الحج:٧٢) يقول ربنا : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ (الحج:٧١) ألا تراه يجمع الآيتين في قوله : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ (الحج:٣ ، ٤) .

ولعلك ترى أن قوله : ﴿ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴾ (الحج:٦٩) ينظر إلى ما بعد أهوال الساعة والبعث من الجزاء والعقاب ، وقد نبهك بذلك إلى قوله : ﴿ هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ . . . ﴾ .

وقد نبه إلى قوة الحجة ، وإصرار الخصم على باطله بقوله : ﴿ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ (الحج:٦٨) ، وقد لفت إلى نسك الحج أدل شعيرة على مقصود السورة بقوله : ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُ ﴾ (الحج:٦٧) .

ولخص دليل البعث الأول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ ﴾ (الحج:٥) وقوله : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ﴾ (الحج:٦٦) ثم أبان عن أنه لا يعرض عن هذا الدليل إلا كفور ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ﴾ (الحج:٦٦) يقول جار الله العلامة عند هذه الآية أي «بعد أن كنتم جمادا ترابا ونطفة وعلقة ومضغة»[1] كأنه كان يضع هذه الآية إزاء نظيرتها في أول السورة ، وهو الأمر الذي يجبرنا على أن قوله : ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ ﴾ (الحج:٦٣) بإزاء قوله : ﴿ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴾ (الحج:٥) ولعل قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقٗا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٥٨ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴾ (الحج:٥٨ ، ٥٩) ينظر إلى قوله : ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾ (الحج:٥٠) وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ

(١) الكشاف ٣/٢١ .

خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ . . .﴾ (الحج:٣٨-٤١) .

والآيات في كل ذلك تتقابل مع آيات الخصم ، وهذه الآيات بخيطها تنظر إلى قوله : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (الحج:٣٤، ٣٥) ولاتنسى أن هذا الوصف للمؤمنين ﴿ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾ الذي وقع هذا الموقع يجبرك على هذا السياق بما قابل به المجادلين اتباعا للشيطان الذي يلقي فيما يتمنى كل رسول ونبي من هداية قومه في قوله : ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ﴾ (الحج:٥٤) .

وكان ابن عاشور قد أبصر علاقة بين قوله : ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ (الحج:٦٧) وقوله : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا ﴾ (الحج:٣٤) فقال : « هذا متصل في المعنى بقوله : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ... ﴾ وقد فصل بين الكلامين ما اقتضى الحال استطراده من قوله : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾ إلى هنا فعاد الكلام إلى الغرض الذي في قوله : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا ﴾ »[1].

والسياق ـ فيما أرى أفسح من هذا ـ تختص السورة بوصفهم بالإخبات لا سيما في الحج يقول أبو حيان : « وناسب تبشير من اتصف بالإخبات هنا لأن أفعال الحج من نزع الثياب والتجرد من المخيط وكشف الرأس ، والتردد في تلك المواضع الغبرة المحجرة والتلبس بأفعال شاقة ـ لا يعلم

(١) التحرير والتنوير ٣٢٧/١٧ .

معناها إلى الله ـ تعالى ـ مؤذن بالاستسلام المحض والتواضع المفرط ، حيث يخرج الإنسان عن مألوفه إلى أفعال غريبة ولذلك وصفهم بالإخبات»[1] .

«والإخبات نزول الخبت وهو المكان المنخفض»[2] ولئن أريد بالمخبتين المخلصين «فإن الإخبات صفتهم»[3] ويفسره ابن عاشور بأنه «المتواضع الذي لا تكبر عنده»[4] .

لا تنس أنا مع سياق الآيتين (٥٨ ، ٥٩) ولكنا أوردنا كلام أهل العلم مؤانسة لما نحاوله من الكشف عن خيوط بيانات السورة ، لاحظ أنه قال في الآيتين ﴿ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ . . . ﴾ تدبر بعدما قررت بسياق آيات الحج ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ (الحج:٢٣ ، ٢٤) ، تدبر معها ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الحج:٥٤) وضعهما بإزاء قوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴾ (الحج:١٦) .

وقابل بين الخصمين في الجزاء ضع مثلا قوله : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾ (الحج:٢٤) بإزاء قوله : ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ ﴾ (الحج:١٩ ، ٢٠ ، ٢١) ، ألست ترى أن قوله :

---

(١) البحر المحيط ٣٦٩/٦ .
(٢) الفتوحات الإلهية ١٦٧/٣ .
(٣) البيضاوي ٩٢/٢ .
(٤) التحرير ٢٦٠/١٧ .

﴿ قُطِّعَتْ لَهُمْ . . . ﴾ وقوله : ﴿ يُصْهَرُ بِهِۦ . . . ﴾ هو جزاء الصنف الذي قال القرآن فيه : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ ﴾ (الحج:١١) ، ما مدى انتفاعه بهذا الخير أليس الملبس والمأكل ، شاكله الجزاء في الآخرة ، ولذلك لن تجد كهذه الآية في العقاب ، لأنك لن تجد كالأولى في تصوير الجرم بطريق الاستعارة التمثيلية ثم خذ قوله : ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ﴾ وقوله : ﴿ وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾ (الحج:٢١) لتضعهما على رأس المجادل في جهالة واستكبار ﴿ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ ﴾ (الحج:٩) بما يجبرك الذكر على فهمه من قوله في الآية (الحج:٢٢) ﴿ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ وقوله في الآية (الحج:٩) ﴿ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ (الحج:٩) ثم يجبرك السياق بالخيط الذي حاولنا البيان عنه ـ وباختصاص آيات الحج بوصف المؤمنين بالإخبات الذي هو التواضع المفرط بأن تقابل أوصافهم وجزاءهم بالتكبر المفرط وأوصاف ذويه وعاقبتهم فتستبين أثر المقصود من السورة (الحث على التقوى) ، وتفسر في هذا النور اختصاص السورة بقوله : ﴿ هَـٰذَانِ خَصْمَانِ . . . ﴾ (الحج:١٩) وهما فريقا المتواضعين المؤمنين والكافرين المكابرين .

ولما استحكم مقصود السورة عند البقاعي زعم أن قوله : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ ﴾ (الحج:٢٦) معطوف على أول السورة يقول : ـ رحمه الله ـ عند الآية «ولما ذكر الفريقين وجزاء كل وختمه بذكر البيت أتبعه التذكير به وبحجه لما فيه من التذكير بالقيامة الحاملة على التقوى ، التي هي مقصد السورة ، بما فيه من الوفادة على الله ولما فيه من الحث على التسنن بأبيهم الأعظم إبراهيم عليه السلام فقال : مقرعا وموبخا لمن أشرك في نفعه ـ أسست على التوحيد من أول يوم عطفا على قوله : أول السورة ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ . . . ﴾ ـ ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا . . . ﴾ »[1] .

---

(١) نظم الدرر ٣٥/١٣، ٣٦ .

ثم يتكلم على الفرق بين قوله هنا : ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ ﴾ (الحج:٢٦) وقوله : في البقرة : ﴿ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ ﴾ (البقرة:١٢٥) فيقول : «ولما تقدم العكوف (يشير إلى قوله : ﴿ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ ﴾) فاستغنى عن إعادته قال : ﴿ وَٱلْقَآئِمِينَ ﴾ أي حوله تعظيما لي كما يفعل حول عرشي ، أو في الصلاة ، ولأن ـ العكوف بالقيام أقرب إلى مقصود السورة»[١] .

وقد دارت آيات الحج على تعظيم شعائر الله مقترنة بالهدى ﴿ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ (الحج:٢٨) ولاحظ قوله : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ (الحج:٣٠) الأمر ليس في إتيان الطاعات ، وإنما هو في تعظيم الحرمات وتعظيم الشعائر وذلك أعظم التقوى لذلك اختصت آيات الحج هنا بقوله : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ (الحج:٣٢) قال جار الله : «وإنما ذكرت القلوب لأنها مراكز التقوى التي إذا ثبتت فيها وتمكنت ظهر أثرها في سائر الأعضاء»[٢] .

ألست ترى أنها أعظم التقوى في الذكر الحكيم كله ، يقابلها أعظم الإعراض فيما يقول القرآن ـ بعد التنصيص على المكذبين بما لم يقع في سورة أخرى أيضا على ورود آيات تكذيب المرسلين في غيرها من السورة[٣] في قوله : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ (الحج:٤٢-٤٣) كأن القرآن يقول ، الجدال بالباطل وخصومة أهل الحق (المرسلين والنبيين) دأب كل الأمم من قبل ، كما

---

(١) نظم الدرر ٣٦/١٣ .

(٢) الكشاف ١٤/٣ .

(٣) آل عمران ١٨٤، والعنكبوت ١٨، وفاطر ٢٥ .

يترجمه التعميم بين الفريقين بما لم يقع في سورة أخرى في قوله ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ ﴾ (الحج:٥٢ ، ٥٣) .

يعقب القرآن بعدما نص على تكذيب الأمم أنبياءهم بما يقابل به قوله ـ في المخبتين ﴿ . . . فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ﴾ (الحج:٣٢) ـ بقوله في المكذبين ﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ (الحج:٤٦) ولا كهذا التركيب في الذكر الحكيم .

ثم يقول سياق الحج في مقصود الحث على التقوى ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ﴾ (الحج:٣٤) ثم يقول في سياق ﴿ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ ﴾ (الحج:٣٢) ﴿ وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُمۡ مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ ﴾ (الحج:٣٦) وفي سياق ﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦ ﴾ أي اجعلوها خالصة لوجه الله على وجه الشكر ويقويه أنه قرئ (صوافي) في (صواف) أي خوالص لوجه الله قاله البيضاوي[1] .

أرأيت إلى تناسب هذا الأسلوب مع تعليق التقوى بالربوبية في المطلع كأن الهدى هو الذي يميز درجات التقوى في يوم الحج الذي يذكر بيوم الجمع ثم يختم هذا السياق بقوله : ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ ﴾ (الحج:٣٧) ، وذلك بيان عن أعظم التقوى قال جار الله العلامة : « لن يرضى المضحون والمقربون إلى ربهم إلا بمراعاة النية والإخلاص ، والاحتفاظ بشروط التقوى في حل ما قرب به وغير ذلك من المحافظات الشرعية

(١) أنوار التنزيل ٩٢/٢ .

وأوامر الورع ، فإذا لم يراعوا ذلك لم تغن عنهم التضحية والتقريب وإن كثر ذلك منهم»[1].

أرأيت لو جاءت آيات البقرة أو آل عمران هنا أكانت تصلح في سياق هذا المقصود؟ ماذا ترى في اختصاص السورة بوصف العذاب بأنه ﴿ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ (الحج:٥٥) ألست ترى أنه متناسب مع قوله : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾ (الحج:٢) على وجه ما من التناسب الظاهر بين الحمل والإرضاع والعقم؟

وجاءت آيات الختام جامعة لما سبق في آيات الحج من معاني التقوى وناظرة لما وضع أول آيات الحج في قوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ (الحج:٢٥) .

وما أعقبت به من قوله : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ ﴾ (الحج:٣٩) ومن بيان أن ذلك دأب الشرائع جميعا ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ ﴾ (الحج:٤٠) حفاظا على الشعائر والنسك جاءت آيات الختام من قوله : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ ﴾ (الحج:٧٧) يقول جار الله ناظرا إلى آيات الحج « للذكر شأن ليس لغيره من الطاعات،وفي هذه السورة دلالات على ذلك، فمن ثمة دعا المؤمنين أولا إلى الصلاة ، التي هي ذكر خالص ، ثم إلى العبادة بغير الصلاة كالصوم والحج والغزو ، ثم عم بالحث على سائر الخيرات»[2].

لعله كان ناظرا إلى ما ذكر في سياق آيات الحج من الذكر والتكبير خمس مرات[3]، وآيات الختام تلح على هذا ﴿ وَجَـٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾

---

(١) الكشاف ١٥/٣ .

(٢) الكشاف ٢٣/٣ .

(٣) الآيات : ٢٨، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧ .

﴿ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ (الحج:٧٨) وهذا التركيب يحثنا إلى النظر إلى آيات الحج وما أحاط بها من آيتي الجهاد ، وفي الختام بين أثر الحث على التقوى عند الإجابة إليها ﴿ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ (الحج:٧٨) قال برهان الدين ـ رحمه الله ـ : «هذا نتيجة التقوى ، وما قبله من أفعال الطاعة ودليلها ، فقد انطبق آخر السورة على أولها ورد مقطعها على مطلعها»[(١)].

وقال ابن عاشور : «وهذا الإنشاء يتضمن تحقيق حسن ولاية الله تعالى وحسن نصره ، وبذلك حسن تفريعه على الأمر بالاعتصام به ، وهذا من براعة الختام كما هو بين لذوي الأفهام» ألست ترى ذلك يتقابل مع قوله : ﴿ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ﴾ (الحج:١٣) في سياق ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ﴾ (الحج:١١ ، ١٢) وهكذا تتشابك تراكيب السورة وآيها في التظاهر على مقصودها تشابكا بديعا ، يلزمك عند استكشاف دقائق فروق تراكيب كل آية منها أن تضع كل آي السورة نورا كاشفا لها ، بل كل آي الذكر الحكيم التي تناولت موضوع الآية محل النظر ، ولدقة الملابسات يتعاظم الشأن في البيان عنها ، وتند العبارة التي تحاول الإحاطة بالكشف عن هذه العلائق ، فيأتي البيان عنها غائما متلددا على تعاظم إشعاعات هذه العلائق في الفؤاد ، فلله نوره .

* * *

(١) نظم الدرر ١٠٤/١٣ .